



مركز

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

www.almadasupplements.com

العدد (5409) السنة العشرون - الأربعاء (12) نيسان 2023

منازل
m a n a r a t

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة للإعلام والثقافة والفنون



ابن باجة

ابن باجة فيلسوف العزلة المغمبون

ماهر الشيبال



اعتبر ابن باجة أول فلاسفة الأندلس لأسباب عديدة، منها أنه أول من تلمذ على سطوة مقولات أرسطو حيث خلفه في تصوره فيما يخص "نظرية المعرفة" و"الإنسان الاجتماعي" وبهذا كان له الفضل في تحرير الفكر العربي، ودفعه لتشكيل طروحاته الفلسفية الخاصة.



كما كان ابن باجة أول من نظر من الأندلسيين في الفلسفة المشرقية- نظر الباحث المحقق.. وهو ما جعله يستدرك على الفارابي في إمامة المدينة الفاضلة، فقال باستحالة توفر الصفات التي اشتراطها الفارابي في شخص واحد ليكون الإمام.. وأنه لا مناص من القبول بالقيادة الجماعية التي تتمثل في النخبة الفكرية العليا التي يملك كل فرد فيها تصورا فلسفيا وصل إليه بالنظر الحكمي المنفرد في حال من العزلة أو الانغلاق على الذات.

ومن أرائه التي عدت للنظير جرة في عصره- قوله أن "القضايا الاجتماعية وخصوصا الأخلاقية منها ليست مستمدة من أوامر الدين والنواهي التي يقول بها، ولا حتى من قوانين المجتمع والدولة، بل هي مبنية على التفكير ومستمدة مباشرة من العقل". وكان هذا الرأي مخالفا لكل ما يروج من أفكار في هذا الوقت بهذا الخصوص، إذ عدّ الشرع أساسا للقيم والأخلاق الاجتماعية، وبالقطع فإن هذا الرأي كان كافيا وحده بأن يُنعت صاحبه بالزندقة والإلحاد من قبل فقهاء عصره الذين أرادوا أن يخضعوا للحياة بما تعتمل به من متغيرات لأهوائهم، ولما جلبوا عليه من جمود وبغض لإعمال العقل.

أما عن مفهوم العزلة أو التوحد الذي صاغه ابن باجة وأطلق عليه آخرون أسماء أخرى كالاغتراب.. فالأرجح أنه كان محاكاة لتجربة أو فرضية الغزالي حول مفهوم الصوفي الذي يحاول في عزلته أن يتصل بالمدارج العلوية، إلا أن ابن باجة ينقل هذه التجربة من المستوى الروحي - الصوفي إلى المستوى العقلي/ الفلسفي.. وهو ما حاول تفسيره بعد ذلك الفيلسوف الوجودي "كيركغارد" بقوله: "إن الفيلسوف متوحد لأنه يعي أنه الاستثنائي بامتياز".

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن الأثر الواضح لفلسفة ابن باجة في فلاسفة أوروبا مثل: إكهارت و"سبينوزا" لكن هذا لا يقال ولا يعترف به "فتاريخ الغرب حافل بمثل هذا الإنكار، منذ أن تنكرت أوروبا لأصولها المرجعية في الثقافة العربية الإسلامية لتقف فوقها، وتزعم أن مرجعيتها مباشرة بالثقافتين اليونانية والرومانية، وكأنها حالة إعجازية خاصة تحرق سنن تتابع المدنية البشرية".

يرى الدكتور جورج زيناتي أن الإنجاز الأكبر لابن باجة هو تهيئته لمشروع ابن رشد الفلسفي والعلمي الذي يبدو في تاريخ السياق العلمي الوضعي العربي، أشبه بلحظة ضائعة أو محاولة عقيمة لم يكتب لها التناسل، فمثل ذلك انتكاسة حضارية هائلة رجّحت فيها كفة الميزان لصالح الثقافة الغربية التي أحسن استثمار الإنجاز الحاصل في الفكر الفلسفي في دفع تقدّم الأبحاث في



السلطة بالكلية، أو أنهم يؤثرون الانزواء بعيدا مكتفين بتعاطي الأفكار والأطروحات الفلسفية الخاصة بهم، أما أندركهم فهم من يرون ضرورة العمل على تثوير العقل الجمعي ليتخلص من قيوده الزائفة انطلاقا نحو إدراك أنبل الغايات.

وبالرغم من محاربتة، وحرصه- ابتداء- على عدم المواجهة المباشرة مع من جعلوا من أنفسهم حراسا للعقيدة وحماة لها، إلا أن ذلك لم يمنع من تعرضه لعدة محاولات للاغتيال من قبل هؤلاء الذين جعلوا دين الله سلعة يأكلون بها، وممن حقدوا عليه المكانة والمنزلة الرفيعة وما وصل إليه في علم الطب تحديدا؛ حتى نجحوا في قتله بالسهم في مدينة فاس ببلاد المغرب نحو عام ١١٣٨م. وقد ترك ابن باجة مؤلفات وصلت عددا إلى نحو المئة بين كتاب ورسالة ضاع منها الكثير، لكن بقي منها ما يكفي لإعطاء فكرة حقيقية عن فلسفته. وتشكل كتب تدبير المتوحد، ورسالة الوداع، ورسالة الاتصال أبرز المؤلفات التي يشرح فيها فلسفته وتاملاته.

- ابن باجة هو أبو بكر محمد بن يحيى الملقب بابن الصائغ أو ابن باجة، ولد في سرقسطة عام ٤٧٥هـ على الأرجح.. كان أول المشتغلين من عرب الأندلس بالفلسفة المشرقية هاجر إلى إشبيلية بعد سقوطها في يد الفونس الأول عام ٥١٢ هـ، وسكن فترة في مدينة المرية وقرطبة، ثم رحل إلى فاس المغربية، وفيها عانى من المحنة واتهم في دينه.

- تولى الوزارة مرتين الأولى في سرقسطة في عهد أبو بكر ابن إبراهيم المعروف بابن تيفلويت في الفترة من ١١٠٩ إلى ١١٠٦ وسجن في آخر هذه الفترة في سجن المستعين بن هود.. وعاد إلى السجن مجددا في شاطبة على يد إبراهيم بن يوسف بن تاشفين، بعد أن اتهم بالزندقة؛ لكنه خرج إلى الوزارة مجددا مع ولاية يحيى بن إبراهيم بن تاشفين.. وورد أن الوزارة الثانية طالت نحو عقدين.

- توفي ابن باجة في رمضان سنة ٥٢٣هـ على أرجح الأقوال بعد أن دس له الطبيب أبو العلاء بن زهر السم عن طريق خادمه ابن معيوب

عن موقع أصوات

بينما قال هو بالمبادئ الفلسفية التي تفترض أن العقل هو وحده مصدر المعرفة الإنسانية، وهو الذي يحقق الإنسان بواسطته كماله الطبيعي، بل إن سائر الأفعال الإنسانية والقيم والفضائل ليست سوى وسيلة وآلة في خدمة هذا العقل وترجمة لأفعاله.

وإعطاء هذا العلم موقعه الذي يستحق، يرى ابن باجة ضرورة أن يكون بعيدا عن المادة للوصول إلى مرتبة العقل المستفاد حيث يقول في رسالة الوداع: "... فأنته واحد من كل جهة، فهو في غاية البعد عن المادة، لا يلحقه التضاد كما يلحق الطبيعية، ولا العمل عن التضاد كالنفس البهيمية، ولا يرى التضاد كالناطقة. فهو أبدا واحد أو على سنن واحدة، في لذة فرح وبها وسرور".

كما اعتبر أن من يدرك هذه المرتبة من العلم يكون قد ظفر برضى الله ونعمته، إذ ليس أحب عند الله من هذا العقل، وإثباتا لذلك يستشهد بما جاء في بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: "... وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) آل عمران، وقوله سبحانه: "... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) فاطر.

كما يستشهد ببعض الأحاديث النبوية لتأكيد أهمية العقل ولدحض رأي الفقهاء الذين يشنون الحملات ضدّ الفلاسفة، فيقول: "خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له أدير فأدير. فقال وعزّي وجالي ما خلقت خلقا أحبّ إلي منك".

وقد مارس ابن باجة شيئا من الإدارة في أرائه المعلنّة التي كانت تتوافق وما يعتقدّه الحاكم الذي استوزره، بينما كانت فتاواته تتسلل عبر كتاباته الفلسفية، بأساليب لا تخلو من تحايل، وهو ما يعكس جزءا هاما من أزمة ابن باجة الفيلسوف.

ولعل ابن باجة قد أهدى إلينا بنموحه هذا تفسيرا لأزمة المثقف الذي لا يستطيع أن يحل تلك الإشكالية بين طوقه للتفكير بحرية مطلقة بعيدا عما يفرضه الواقع من اعتبارات، ومسؤوليته حيال مجتمعه الذي يطمح أن تنفذ إليه أفكاره ورؤاه؛ فتدفعه نحو التقدم والنهوض، تلك الحالة الحرجة التي ربما لا يحافظ عليها باتزان حقيقي كثير من مثقفي هذا العصر، فتراهم يدجنون في حضائر

العلوم الوضعية، فكان لها ما وصلت إليه اليوم من مدينة وتحضر وهيمنة.

وقد استفاد ابن رشد بشكل مباشر من فلسفة ابن باجة التي وضعها وفق قيمتين أساسيتين لم يسبقه إليهما أحد... أولاهما أنه بنى الفلسفة العقلية على أسس الرياضيات والطبيعية فنزع عن الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل، وخلع عليها لباس العلم، وثانيتهما أنه أول فيلسوف في الإسلام فصل بين الدين والفلسفة في البحث، وانصرف إلى العقل، وبالقطع فإن ذلك قد فتح عليه بابا من أبواب الجحيم.

وقد شدّد ابن باجة على أهمية العقل بل رفعه إلى مرتبة القداسة وجعله العنصر الحاسم في خيارات الإنسان واختياراته والمصدر الأساس الذي تتوقف عليه سعادة الإنسان، فيقول في هذا الأمر موضحا في تدبير المتوحد: "ولما كانت الأفعال الإنسانية هي الاختيارية كان كل فعل من أفعال هذه القوى يمكن أن يكون للناطقة فيها مدخل. والنظام والترتيب في أفعال الإنسان إنما هو من أجل الناطقة، وهما للناطقة من أجل الغاية، التي جرت العادة أن يقال لها العاقبة والسعادة... وكل ما يوجد للإنسان بالطبع ويختص به من الأفعال فهو باختيار. وكل فعل يوجد للإنسان باختياره فلا يوجد لغيره من أنواع الأجسام، والأفعال الإنسانية الخاصة به هي ما تكون باختيار، فكل فعل إنساني هو فعل باختيار. وأعني بالاختيار الإرادة الكائنة عن روية، أما الإلهامات والإلقاء في الروح وبالجملة الانفعالات العقلية - إن جاز أن يكون في العقل انفعال يشارك الإنسان- فإن الإنسان مختص بها. وإنما احتيج إلى اشتراط الاختيار في الأفعال التي من جهة النفس البهيمية، فإن الحيوان غير الناطق إنما يتقدم فعلة ما يحدث في النفس البهيمية من أفعال".

كما يذهب ابن باجة بخصوص العقل إلى أبعد من ذلك إذ قال بخلود العقل والصور العقلانية من جهة، وفساد كل خصائص الإنسان الأخرى بما فيها الصور الجسمانية والروحية من جهة أخرى. ولابن باجة إسهامه الهام في نظرية المعرفة إذ حصرت من قبل التقليديين في زمانه، بالإلهيات والروحانيات،

إشكالية العقل والإنسان في فكر ابن باجة

د. سامي محمود إبراهيم

د

وجودنا على الأرض إرادة إلهية للفعل واعمال للفكر وبالتالي فإن العلم ينبغي له أن يكون حامي للإيمان لا مناقض له والحقيقة تكريس مادي للإيمان لا معارضة له، وصياغة الحياة بما يضمن إسهاد البشرية على الأرض هو فعل الإنسان، والعمل دومًا هو الحقيقة الأصدق والأكثر تجردًا وبقاءً والأرسخ إيمانًا لأنها الأبقى والأقوى.

د



ذاتها في الإشارات الإلهية للتوحيد، فالغريب من هو في غريبته غريب. هو من إن رأيت لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه، الغريب من إن حضر كان غائبًا، وإن غاب كان حاضرًا، وأغرب الغرباء من صار غريبًا في وطنه، فمن حوله لا يدرك بيسر مراميه وأهدافه، فالناس واقعون تحت وطأة العادة تحركهم الرغبات والأهواء، في حين لا يخضع المتوحد لسلطة غير سلطة عقله، لذلك فإنه يسمو بفكره عن المدينة التي يعيش فيها، ويهاجر عقليًا إلى مدينة أخرى متصورة، تكون بديلاً عنها، وفي قطيعة كلية مع شروها ومسؤولها، فالعقل حصن يأوي الفيلسوف إليه، والمدينة الكاملة طوبى جميلة تراوده، إنها مدينة منشودة، إذا ما قبض لها التأسيس ستكون خالية من الكذب والزيغ والشر وكل ما يفقد الإنسان إنسانيته، فتلك هي السمات الدالة عليها، إذ بين أن المدينة الفاضلة الكاملة قد أعطي فيها كل إنسان أفضل ما هو معد نحوه، وأن أراءها كلها صادقة، وأنه لا رأي كاذب فيها، وأن أعمالها هي الفاضلة بالإطلاق.

ويبدو واضحًا هنا أن ابن باجة يوجه نقدًا لادعًا للحياة الاجتماعية السياسية السائدة في عصره، أي إننا أمام معالجة نقدية لمنط مجتمعي نتج عنه ظهور إنسان تخلو سلوكياته الأخلاقية من الفضيلة، وتفترق أفكاره إلى الحكمة، تعطل العقل لديه فأضحى عدوًا لذاته قبل أن يكون عدوًا للآخرين.

والمسألة السياسية في رأي ابن باجة هي في جوهرها مسألة اجتماعية أخلاقية، ولحلها يجب الاعتناء بالأسرة والفرد، لذلك يركز اهتمامه على المنزل أو الأسرة، فمطلما هناك مدينة كاملة وأخرى ناقصة هناك منزل كامل وأخر ناقص ومريض، فالمنزل ما عدا المنزل الفاضل مرضي وكلها منحرفة.

والدور الذي يعطيه للعقل يكشف عن الفعالية التي تمارسها الأفكار بالنسبة إليه في تنظيم شؤون الناس، فالفلسفة بما هي فعل عقلائي يمكن أن تقود إلى السعادة والكمال، وبالتالي بناء المدينة الكاملة وضمها وحدتها، أما الإيمانية الدينية سواء اتخذت شكل الكلام أو التصوف فإنها لا تؤدي لغير بقاء المدن على فسادها، لافتقارها إلى البرهنة العقلية وارتكازها على الخطابة والجدل، فمجال حركتها على مستوى النظر إعادة إنتاج النصوص القدسية دون إضافة تذكر، أما على مستوى العمل فإنها تبذر الفرقة والتباغض بين الناس، مما يؤدي إلى انقسام المدينة على نفسها في شكل ملل ومذاهب وطوائف متناحرة.

والقيمة الكبرى التي يمنحها ابن باجة للفعل الإنساني المستند إلى العقل والتعلل، تجعله يسمو بهذا الفعل إلى مستوى الفعل الإلهي، وهذا هو الفعل الذي يختص به المتوحد، إذ التفلسف كما قال سقراط هو التشبه بالألهة قدر المستطاع.

وهذه الإشارة تدفع إلى القول بأن لحظة تدبير المتوحد لحظة مؤقتة في أفق العمل على إعادة بناء الوعي بالذات، والتأثير في وعي الأخر، وفي أفق تعميم العقل وانتشاره داخل أسوار المدينة. ذلك وحده، هو شرط تحقق الإنسانية، وذلك أيضًا هو شرط تجسيد الفعل الإنساني في الواقع. لكن، ما يسود في زمان ابن باجة ويفرض على الفيلسوف الوحدة والتوحد، غياب العقل، وهيمنة اللاعقل، أو بتعبير ابن باجة انحطاط الإنسانية إلى البهيمة.

لذلك يرى ابن باجة أن الفعل البهيمة هو الذي يتقدمه في النفس الانفعال النفساني فقط كالغضب أو الخوف، والإنسان هو الذي يتقدمه أمر يوجب عند فاعله الفكر. وبناءً على ما تقدم لم يكتف ابن باجة بتمجيد العقل بل إلى تقييده، فالمعرفة الصحيحة، والمعرفة المطلقة، والسعادة والأخلاق، كلها شؤون مبنية على العقل، كما أن الإنسان يستطيع بواسطة عقله أن يدرك كل شيء، من أدنى دركات الوجود المادية، إلى أعلى درجات الوجود الوجود الإلهي.

واعتبر أن العقل هو العنصر الحاسم في خيارات الإنسان واختياراته والمصدر الأساس الذي تتوقف عليه سعاداته. فالنظام والترتيب في أفعال الإنسان إنما من العقل أو القوة الناطقة. وكل ما يوجد للإنسان بالطبع ويختص به من الأفعال فهو باختبار. وكل فعل يوجد للإنسان باختباره فلا يوجد لغيره من أنواع الأجسام.

بموقفه هذا وقبله ابن طفيل. وفي تدبير المتوحد بين ابن باجة معالم الطريق الوصول إلى العقل الفعال. والتدبير كلمة تدل على ترتيب أفعال نحو غاية مقصودة، وليست هذه الغاية سوى الاتحاد بالعقل الفعال، ولهذا فإن الطريق الذي يرسمه الكتاب هو المنهج الذي يسير عليه الإنسان حتى يبلغ هذه الغاية المنشودة.

ولكن هذا المنهج ليس منهجًا صوفيًا يستخدم فيه المريد أسلوب المجاهدة والتطهير، بل هو تدبير الأعمال بالعقل، واستخدام الرؤية، ولا يقدر على هذا غير الإنسان. كما يميز ابن باجة بشكل واضح بين الإنسان المادي أو الجسماني الملموس المزمع بالعيش وفق أسس الزمان والمكان العاشين ولذا فإن ابن باجة أخذ من المدينة الفاضلة فكرتها وغيابها بقوله بأن بإمكان الجسد المحسوس أن يعيش قانعًا حتى في المدينة الفاسدة وأن يلتزم بقوانينها وشروطها كما أن بإمكان الروحاني الرافض لفساد المدينة والذي يفقد المدينة الفاضلة أن ينتقل للعيش بالصور الروحانية وصولاً إلى العقل الفعال. أما كتاب "حي ابن يقظان" لابن طفيل فيقول بوضوح حاد أن المعرفة مكتسبة وهي لا تولد مع الإنسان وأن المعرفة تأتي من المحسوسات وهي في الوقت ذاته وسيلة الانتقال من الذات الأنا إلى الذات الأخر ومن العزلة إلى المشاركة وصياغة الذات المجتمعية، وبالتالي فإن ما قاله فوكو عن تدبير المتوحد وحي بن يقظان بأنها جاءت للإجابة عن سؤال: كيف نعيش بشكل جيد في مجتمع لا يزال ناقصًا، وكيف تحكم العقل في مجتمع جاهل؟ هو قول صحيح جدًا ويعبر عن واقع.

إن الإنسان المتوحد عند ابن باجة هو الفيلسوف الحكيم، الذي يبحث عن سعاداته الذاتية، في المدن الفاسدة التي لا تعرف إلا الشقاء. إنه صاحب رأي صادق في مدينة ضالة. لذلك فهو غريب في وطنه، غربة الرأي السيد الصائب وسط الجماعة الجاهلة والفاسدة. إنها غربة فكرية، لا علاقة لها بالبعد الاجتماعي ولا السياسي. ودخل هذه الغربة، يدبر المتوحد حياته الفردية، ليجنحها أقات ظلم الجماعة.

إلى هذا الحد ستكون مهمة المتوحد ليست هينة، فبفعل انتشار الفساد في المدن فإنه يكون غريبًا في بلده بعيدًا عن أهله وأصدقائه، إنه متقف معزول ومنعزل في علاقته بالسائد، فالمدينة الجاهلة الناقصة غارقة في أزماتها، غير مدركة للهلاك المترص بها، معرضة عن الفيلسوف ومتعلقة بأهداب المتصوفة والمتكلمين الجهلة، الأحياء منهم والأموات، إنها ضحية تقديس جلادها، متنكرة لمن يطلب خلاصها، وتذكرنا الصورة التي يرسمها ابن باجة للمتوحد في غريبته بصورة أخرى تطغح بالملامح

المزعج بالنسبة إلى السائد الاجتماعي والسياسي والإيديولوجي، الذي وجد فيه قولاً محررًا وجبت مقاومته، فحشد لذلك سائر الأسلحة بدءًا بالتكفير وانهاء يدس السم لاغتتيال عقل متمرد.

وابن باجة كسقراط مارس السياسة فعلاً وقولاً، وقد عايش لحظات انهيار حكم الطوائف في الأندلس. وعاش توترًا وقلقًا نفسيًا وفكريًا انتهى بقتله مسمومًا. لم يكن ابن باجة ضحية ظلم الأغلبية الجاهلة فحسب، بل كان أيضًا ضحية تصارع سلطتين: السلطة السياسية والسلطة الدينية. سلطتان غايتهم في أغلب الحالات نفعية، كانتا تتبادلان المصالح، لتأثيرهما معًا في طبقة الأغلبية أو الجماهير، خصوصًا في أوقات الحرب.

في هذا الصدد نجد أن ابن باجة مثل سقراط، لم ينسحب من المعركة الفكرية، بل انخرط بكل قوة في هوموم الأمة والمدينة والمجتمع. لكن كيف يتعايش الفيلسوف مع محيط ليس للعقل حكم فيه ولا وجود؟ ليس أمام الفيلسوف إلا البحث عن أنموذج فلسفي حدث في التاريخ وهو أمر لم يقع على الواقع بل كان تنظيرًا يونانيًا وحسب، بمعنى الفراغ إلى تصور مدينة الفاضلة كما فعل أفلاطون والفارابي.

فلم يكن ابن باجة، ليتجاهل التجارب السابقة عليه سواء في بعدها التاريخي أو الفلسفي؛ فكان اختياره على الرغم من مشائيته الأرسطية المؤمنة بفكرة أن الإنسان حيوان اجتماعي بالطبع، والتوحد، والوجدانية وهو الموقف الذي جسده في كتابه "تدبير المتوحد".

كما رفض ابن باجة المنهج الصوفي في إدراك الحقيقة كما عند ابن سينا، واعتبر العقل أو البرهان هو الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى امتلاك الحقيقة اليقينية، حقيقة معرفة الله تعالى. ومما تجدر الإشارة إليه أنه كما كان ابن مسرة يمثل في المغرب اتجاهًا يميل إلى التصوف وإلى الإدراك الذوقي لحقائق الوعي والألوهية وتحقيق السعادة واللذة عن طريق المشاهدة الصوفية، نجد أن ابن باجة يرفض هذا الاتجاه، وينتقد موقف الغزالي في المشرق الذي قال بأن العالم العقلي لا ينكشف للإنسان إلا بالخلوة، فيرى الأنوار الإلهية، ويلتذ بها لذة كبيرة، فهو يرى: إن الغزالي حسب الأمر هينا حينًا ظن أن السعادة إنما تحصل للمرء عن طريق امتلاكه للحقيقة بنور يقذفه الله في القلب. بل الحق أن النظر العقلي الخالص الذي لا تشوبه لذة حسية هو وحده الوصول إلى مشاهدة الله، أما المعرفة الصوفية بما تنطوي عليه من صور حسية فإنها تكون عائقًا عن الوصول إلى معرفة الله إذ هي تحجب وجه الحقيقة.

فالمعرفة العقلية هي وحدها التي تقود الإنسان إلى معرفة نفسه بنفسه ومعرفة العقل الفعال، وقد تأثر ابن رشد

ابن باجة الأندلسي.. فيلسوف السعادة الذي قتل مسموما!

محمد شعبان أيوب



د

اشتهر الفيلسوف الأندلسي ابن باجة في الشرق والغرب بفضل كتاباته في الفلسفة والأخلاق والإلهيات التي ترجمت للاتينية، واعتمدت كتبه لمناهج فلسفية ومراجع للعلوم الإنسانية والإسلامية على حد سواء حتى القرن السابع عشر.

د

وصدر حديثاً كتاب جديد للأكاديمي الفلسطيني جورج زيناتي بعنوان "فلسفة ابن باجة وأثرها" ضمن سلسلة "ترجمان" التابعة لـ "المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات" في الدوحة، وقد ترجمه المؤلف نفسه من اللغة الفرنسية.

وفي الكتاب سعى زيناتي إلى إعادة قراءة فكر ابن باجة الأندلسي، مُلقياً الضوء على حياته ومؤلفاته، ثم معالجا آراءه الميتافيزيقية، وقضايا النفس الإنسانية وأطوارها في فلسفته، ومضامين فلسفته السياسية، ثم أثر فلسفته في الفكرين العربي والغربي الحديث.

سرقسطة مسقط الرأس

ولد أبو بكر محمد بن يحيى الصائغ المشهور بابن باجة في مدينة سرقسطة شمال شرقي الأندلس ولا نعرف على وجه الدقة السنة التي ولد فيها، لكن المرجح أنه ولد في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

ولد ابن باجة لأسرة تعود أصولها إلى الإسبان اللاتين الذين اعتنقوا الإسلام، في تلك المدينة التي كانت تواجه خطر الهجوم الصليبي المتكرر من جهة

مملكة أرغون القريبة في أواخر عصر بني هود.

وفي هذه المدينة درس ابن باجة علوم الإسلام النقلية والعقلية وعلوم العربية على كبار شيوخها. وكان ابن باجة يُلم إماما حسنا باثني عشر علما مثل الرياضيات والفلك والطب وعلوم العربية وغيرها، على أن أكثر ما استهواه دراسة الفلسفة.

واستطاع ابن باجة حين دخل المرابطون سرقسطة واستولوا عليها، أن يحظى بتقديرهم، واتخذوه عاملهم أبو بكر بن إبراهيم الممتوني، كاتباً ووزيراً

هناك قرر أن يتجه إلى المغرب حيث تقرب من الحضرة المرابطية، وهو في ظل هذه السنوات الطويلة من التنقل والترحال، حرص على تدوين فلسفته في عدد من المؤلفات المهمة على رأسها كتابه الأشهر "تدبير المتوحد".

أما عن فلسفة ابن باجة الخاصة، فإنه استطاع وضع تصور من عدة مستويات حول مكانة الإنسان ودرجاته، فأدناها عنده، الإنسان البهيمي الذي يقوده هواه وتسيطر عليه انفعالاته وجوارحه، ثم يأتي في درجة أعلى، الإنسان الذي يفكر تفكيراً نظرياً، وعلى أن أعلاهم شأنًا، ذلك الذي يتحقق لديه العقل في أكمل صورة، فيدرك الأشياء عن طريق الحدس أي من أعماقه وداخله، بعد معاناة وتدرج وتدريب.

ولم يغفل ابن باجة ما للعلم من قيمة وفلسفة ولذتين متحصلتين، أولهما لذة اليقين عندما يصل المرء إلى إدراك المعاني الصائبة أو الحقائق. وهذه اللذة العقلية تشبه اللذة الحسية على نحو ما، فكما أن اللذة الحسية كمال للجسم، كذلك اللذة العقلية كمال للنفس، لكن اللذة الحسية قد تعود على الجسم بالضرر، في حين أن اللذة العقلية لا يُمكن أن تورث ضرراً كما يقول. أما اللذة أو الثمرة الثانية للعلم فهي تلك التي يشعر بها كل من أدرك شيئاً جديداً، وهذه لا اسم لها، وتلك صفة ملازمة دائماً للعالم، والباحث لا يبحث عن المعرفة من أجل هذه اللذة، بل هي تحدث عرضاً. يقول ابن باجة: "فمن طلب العلم للذة كمن يطلب من الأكل والشرب الالتذاق بما لا يصح به جسمه"، ولذلك فإن العلم الحقيقي عند ابن باجة هو الذي يُحقق السعادة الكبرى في السكينة والفرح والبهجة التي يشعر بها الإنسان الكامل حين يدرك جوهره الحقيقي، كما يقول الشيخ كامل عويضة في كتابه "ابن باجة الأندلسي الفيلسوف الخلاق".

إن غاية الإنسان في تصور ابن باجة هي قدرته على الانتقال والتغير من حال إلى آخر، وأصناف الغايات عنده كثيرة، منها العبادة التي يبغى بها رضا الله تعالى، ومنها الجاه وما يلحق به من التزين والتلذذ، ومنها النظر العقلي الذي ينتهي بالاتصال بالعقل الفاعل. والغاية التي يجب أن يسعى إليها الإنسان هي البعد عن المادة والاقتراب من الكمال الإلهي الذي لا يدرك إلا بمعونة إلهية، لذا بعث الله الأنبياء والرسل تميماً للعلم الناقص عند الإنسان.

تأثيره في الفلاسفة

وقد تأثر كثير من الفلاسفة العرب والأوروبيين بفكر ابن باجة، ومن بينهم ابن طفيل، وابن رشد الذي أعجب بابن باجة للغاية، وموسى بن ميمون الفيلسوف اليهودي الذي اتفق معه في مسألة الفضائل الأخلاقية. كما وجد أثر ابن باجة في فلاسفة الغرب ولا سيما الألماني إكهارت (١٢٦٠-١٣٢٨م) الذي انتهج التصوف العقلاني، والهولندي باروخ سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧م) الذي نجد في كتابه "علم الأخلاق" نقاط التقاء كثيرة مع ابن باجة.

وبخلاف أعماله الفلسفية عُرف عن ابن باجة كذلك اهتمامه بعلوم السياسة والفلك والموسيقى والموشحات والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية، واشتهر بتأسيس الفلسفة على أسس علمية رياضية وطبيعية.

وبعد حياة حافلة بالتأليف والدرس، وبعد لمعان نجمه وسط البلاط المرابطي في المغرب، واجهته الدناس والمؤامرات والمكائد وتآليب الجماهير عليه، واتهامه بالإلحاد والزندقة. وقد تولى زعامة معارضته الطبيب الشهير ابن زهر والمؤرخ والكاتب الفتح بن خاقان فضلاً عن طائفة من فقهاء المالكية، وفي نهاية المطاف مات ابن باجة على الأرجح مسموماً سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م، بعدما

خلف وراءه ٢٧ كتاباً لا تزال معتمدة في دراسة العلوم الفلسفية حتى عصرنا الحاضر.

عن موقع الجزيرة نت

له، وكان ابن باجة حينذاك متعمقا في الفلسفة وعلوم الطب والفلك، وقد ألم بالرياضيات والفلك والطب وعلوم العربية وغيرها إلا أن أكثر ما استهواه دراسة الفلسفة.

المغرب الوجهة

ولما سقطت سرقسطة في يد الأروغونيين هجرها إلى إشبيلية ومنها إلى بلنسية ثم إلى شاطبة، ممتهاً الطب الذي كان حاذقاً فيه بجانب علومه الفلسفية. من

ابن باجة الاندلسي والمدن غير الفاضلة

منير ابراهيم تايه

22

في تاريخ الفكر الاسلامي شخصيات أثرت بشكل كبير في تقدم المعرفة الانسانية في ميدان الفلسفة والنظر العقلي، لا سيما اذا كانت الرؤية الفلسفية تنبثق من تصور كوني يرتق بالمعرفة الانسانية وفق تصور نسقي يتناول الانسان ككائن كوني متعدد الابعاد.. ومن هؤلاء الفلاسفة الفيلسوف الاندلسي المعروف بابن باجة الاندلسي وهو "ابو بكر محمد بن يحيى الصايغ" المولود في مدينة سراقوسا الإسبانية أوائل القرن الثاني عشر ولم تعرف على وجه التحديد سنة ولادته، توفي مسموما من قبل أعدائه الذين وصموه بالكفر والإلحاد في مدينة فاس المراكشية، بعد ان رحل إليها حين كانت الأندلس تمر في مرحلة من الاضطرابات الداخلية والهجمات الإسبانية على معاقل العرب ومدنهم.

22

اتسمت المرحلة التاريخية التي عاش فيها ابن باجة في الأندلس باضطرابات وانشقاقات وصراعات بين ملوك الطوائف، ونحو السلطة الى دولة المرابطين، بعد أن أدت الخلافات بين الأمويين والبربر في الأندلس الى تقويض الخلافة الأموية هناك. استتعت هذه الانهيارات في الأندلس ما سبقها من انهيار دولة العباسيين وقلها الامويين في المشرق. تراكمت هذه الانهيارات السلطوية بمجيء أمراء وحكام اتصفوا في غالبيتهم بالاعتماد على الفقهاء والمقلدين في تكريس سلطتهم، وذلك عبر توظيف هؤلاء الفقهاء في تسويق السلطة السياسية واضفاء المشروعية على الحاكم. وهي جهة ترتب عليها اضطهاد الفلاسفة والتكفير بهم واطلاق شتى نعوت التكفير في حقهم.

وبخلاف المشرق، لم يشهد علم الكلام في المغرب ذلك الزدهار الذي عرفه المشرق، لأسباب تتصل بالبيئة الفكرية السائدة في تلك المناطق وبعدها عن مراكز التفاعل السياسي والفلسفي كالذي عرفته بلاد الرافدين أو بلاد الشام في عهود الأمويين والعباسيين الذين اتاحوا مجالات واسعة للنقاش اللاهوتي بين الفرق الإسلامية. وفي مجال آخر، يرى بعض دارسي المغرب العربي وخصوصا الحكم في الأندلس أن ضعف وجود الفرق الدينية يرتبط الى حد بعيد بسيادة مذهب وحيد من المذاهب الإسلامية هو المذهب المالكي حيث لعب هذا الاحتكار دورا سلبيا في تطور الحركة الفلسفية لأنه حد من الحرية الفكرية وازدهار السجلات بين المذاهب بما يغني الحياة العقلية ويدخل جمهورا واسعا في سجلات القضايا التي تثيرها. لكن الحركة الفكرية في المغرب، وعلى ضعف انتشارها، اتسمت بقيام الفلسفة على العقل وتنصيبه سيديا في السجلات والأحكام بشكل تجاوز المشرق. يعود هذا التميز "المغربي" إلى تغلغل الفلسفة اليونانية بشكل اكبر مما عرفه المشرق، ودخول مؤلفات وكتب حول هذه الفلسفة لم يسبق للمشرقيين أن عرفوها. والسبب الأهم يعود إلى ذلك التواصل بين المشرق والمغرب حول قضايا الفلسفة واطلاع المغربيين على حصيلة السجلات وما توصل اليه المشاركة من آراء فلسفية، مما يعني أن المغرب حصل على الخلاصات الفكرية - الفلسفية للمشرق بعد أن وصلت إلى أعلى درجات تطورها ونضجها، وهو ما ساهم في تمكن المغاربة من الاستفادة من هذا التطور وتوظيفه في الوجهة والمنحى الذي سلكه فكرهم الفلسفي خصوصا في اعتماد

العقل مقياسا للحكم على جميع القضايا. وهو أمر يشهد عليه فكر ابن باجة وبعده كل من ابن طفيل وابن رشد. وسط هذه الأجواء الأندلسية، نشأ ابن باجة ومارس حياته متعددة المشارب والمجالات. كان "شموليا" في العلوم والفنون التي اتقنها والتي تراوحت بين الفلسفة والمنطق والفلك والطب وعلم النبات والموسيقى والشعر وغيرها من فنون الأدب، فتميز بسبب هذا التنوع الفريد في الاهتمامات. تركت أعماله الفلسفية بشكل خاص على إنجاز تعليقات عميقة لكتب أرسطو وأفلاطون والفارابي، فقدم الكثير من الاجتهادات حول الفلسفتين اليونانية والعربية الإسلامية حيث ضمت فلسفته خلاصة ما وصلت اليه هاتان الفلسفتان في ميادين النظر الى السياسة والفكر والاجتماع والاخلاق. كانت آراء "ابن باجة" معادية لآراء الصوفية، أما فلسفته فكانت مبنية على فكرة "الانعزال والانفراد" لأنه كان يعتقد أن غاية التناسق والفكر الناشط والتفكير الصحيح لا يأتيان إلا بالانفراد والتأمل والانعزال عن الناس.

قرأ "ابن باجة" كتاب "حي بن يقظان" لتلميذه ابن طفيل وقال عنه: "بعد أن قرأت الكتاب وجدت أن نفس الإنسان تتحد باطنيا مع العقل الناشط ثم تنتج أفكار وأساليب هي في غاية التناسق والانسجام مع الآراء الحديثة المتبعة بين الناس.

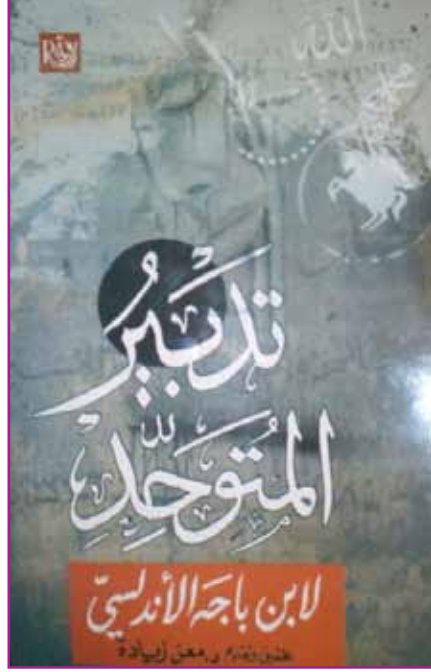
خالف "ابن باجة" في آراءه الفلسفية "ابن سينا" و"الفارابي" وحسب رايه فإن آراء هذين الفيلسوفين كانت مبنية على أسس الدين وليست مبنية على أصول العلم والمنطق ولهذا فقدت صحتها العلمية..

كان يعتقد أن العلم التطبيقي علم مفيد للإنسان لأنه يسهل مرافق الحياة للناس وخصوصا الاكتشافات التي تسهل للناس حياتهم اليومية وبالرغم من انتقاده لفلسفة الفارابي إلا أنه أعجب بكتابه "رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة" لأنه حث على رفض أفكار وانتقادات العامة من الناس وهذا مما يطابق فلسفته.

قسم ابن باجة التفكير الإنساني إلى قسمين: الأول: التفكير العادي وهو الفهم المتساوي بين جميع الناس وهذا يضم تفكير الإنسان في حياته كالحصول على معيشته ولباسه ومعاملته ومسلكه مع الناس.

الثاني: التفكير الناشط وهو الفكر المبدع وثماره المخلفات الفكرية كالإختراع والتأليف في العلوم والفلسفة والأدب، وهو الفكر الذي يستنبط ويحلل ويبتكر ويؤلف ويكتشف وهذه المخلفات الفكرية باقية لا تموت بموت الإنسان.

ولأسف فإن صاحب هذا النوع من التفكير سيكون عرضه للشك والاضطهاد وسوء المعاملة لأن عامة الناس جهلاء لا يفهمون قيمة العلم والمقدرة الفكرية فيصبح صاحبها عرضة لسوء المعاملة التي تقوده إلى الهلاك. وخير لهذا الإنسان السكوت والصمت وتحاشي المناقشات في الأمور الدينية خاصة الجدل مع عامة الناس.



والإلقاء في الروع وبالجملة الانفعالات العقلية - إن جاز أن يكون في العقل انفعال يشارك الإنسان - فإن الإنسان مختص بها. وانما احتيج الى اشتراط الاختيار في الأفعال التي من جهة النفس البهيمية، فإن الحيوان غير الناطق إنما يتقدم فعله ما يحدث في النفس البهيمية من أفعال.

أما فلسفة ابن باجة فقد كانت تدور حول "النظام" وقد عرّف هذه الكلمة فقال: "إن كلمة نظام تعني التناسق في الأعمال التي لها نهاية موحدة وغاية موحدة". وكلمة نظام لا يمكن تطبيقها على عمل واحد بل على عمليات عديدة تهدف إلى هدف معين. فمثلا أن هناك "نظام عسكريا" و"نظاما سياسيا" و"نظاما اجتماعيا" وهكذا فإن الخالق يدير نظام الخليقة ونظام الكون حسب إرادته كما يدير الإنسان نظامه على الأرض حسب احتياجاته.

وقال: إذا كان تكفير الإنسان يدور حول العدالة والإنصاف وحب الخالق وإطاعة وصاياه. هذا الإنسان مثالي ذو نفس عالية وقد منّ عليه الخالق بصفات عالية وضعت فوق باقي المخلوقات. أما إذا كان فكر الإنسان يدور حول شعوره وملذاته في الدنيا وما توفر له هذه الملذات من أطعماع وشهوات حيوانية ومن أخلاق عدوانية فإن هذا الإنسان تسيطر عليه أطعماعه الحيوانية فيصبح الإنسان في منزلة الحيوان وليس له منزلة الإنسان ذي الأخلاق العالية وهكذا فقد فرق ابن باجة في كتابه "تدبير المتوحد" بين الإنسان ومقدرته العقلية، وبين الحيوان الذي تركّز أطعماعه على مطالبه.

يطلق على فلسفة ابن باجة أنها سعي دؤوب لـ"مصالحة الفلسفة مع الحياة، أو ما وراء الطبيعة مع الطبيعة"، من أجل ذلك، رأى ابن باجة أن العقل هو السبيل الوحيد لتحقيق هذه المهمة. فجمع في فلسفته الإسلامية بين نظام أرسطو العقلي وتأملات أفلاطون الروحية، واعتمد على كتاب "الجمهورية" لأفلاطون، و"الأخلاق" و"الحس والمحسوس" لأرسطو، و"السياسة المدنية" و"رسالة العقل" للفارابي في شرح مفاهيمه العقلية وطروحاته الفلسفية.

شدد ابن باجة على أن العقل هو العنصر الحاسم في خيارات الإنسان واختياراته والمصدر الأساس الذي تتوقف عليه سعادة الإنسان.

والعقل عند ابن باجة هو العلم النظري الذي يحقق الإنسان بواسطته كماله الطبيعي، لذلك يعتبر أن من يدرك هذه المرتبة من العلم يكون قد ظفر برضى الله ونعمته، إذ ليس أحب عند الله من هذا العقل، وإثباتا لذلك يستشهد بما جاء في بعض الآيات القرآنية "والراسخون في العلم يقولون أمانا به، كل من عند ربنا.. انما يخشى الله من عباده العلماء"، كما يستشهد ببعض الأحاديث النبوية لتأكيد أهمية العقل ولدحض رأي الفقهاء الذين يشنون الحملات ضد الفلاسفة. وإذا كانت الفلسفة في حقيقة أمرها ليست سوى تنوير لمملكة العقل باعتباره

أسمى نور يملكه الانسان، فإن الإنسان نفسه لا يصير إنسانا إلا بعد مروره بمرحل تبدأ بالحال النباتية وهي حاله عندما يكون جنينا، ثم الى الحال الحيوانية المعبر عنها بحراكه واشتهائه للأكل والملذات، وأخيرا تكتمل إنسانيته في المرحلة العقلية التي هي أسمى المراحل، وبذلك يكون الإنسان انسانا.

أثر ابن باجة العزلة والابتعاد عن الناس واولى موضوع التوحد والاعتزاب عن الواقع المعاش أهمية في كتاباته، مع ما تبعها من معاناة شخصية ونفسية دفعت به الى "التنظير" للعزلة، مع ما فيها من يأس من الحياة في جوانبها السياسية والاجتماعية.

ان فلسفة ابن باجة في مجملها تعبر عن القلق الذي يعيشه الفيلسوف بشكل عام، وكتابه "تدبير المتوحد" يعبر عن فشله في تحقيق "برنامج سياسي" المتصل برؤيته للمدينة الفاضلة واستحالة الوصول اليها في زمانه.

يعرف ابن باجة "التدبير" على انه خطة الإنسان العاقل في سلوكه الاجتماعي وممارسته السياسية في مجتمع يفترق إلى العقل في تحديد السلوك. ويشدد على أن الفلاسفة يجب أن يعيشوا وفق ما يقتضيه العقل ليتمكن لهم الوصول الى السعادة الروحية التي يراها اسمى مظاهر الحياة الدنيا.

وخلافا لكثير من فلاسفة، يرى ابن باجة ان الفلسفة هي لجميع الناس الذين بإمكانهم النهل من معطياتها. لذا اعتبر أن الفلسفة أو التدبير شأن خاص بالإنسان، لأن الإنسان وحده يتميز عن سائر الكائنات الحية بالفكر، والإنسان في رايه يسعى بشكل دائم لتحقيق السعادة، ومن هنا يرى ان الفلسفة تحمل غاية عملية هي تحقيق سعادة الإنسان. وهذه السعادة تتحقق عن طريق وصول الإنسان الى أعلى مراحل التعقل التي يجسدها العقل الفعال. لقد ربط ابن باجة بشكل وثيق سعادة الإنسان بالعقل وبحرية الاختيار.

اثار ابن باجة قضية لم يجرؤ فلاسفة مسلمون قبله على التطرق اليها بشكل تقدي، ألا وهي مسألة النبوة وما تشيره من جدل حول العلاقة بين المعرفة التي تأتي عن طريق العقل والمعرفة الآتية عن طريق الوحي كما يشدد الإسلام على هذه الناحية. تنحو فلسفة ابن باجة الى اولوية العقل على الوحي، وتتجلى أكثر في احاديثه عن قدرة الإنسان على رؤية الحقيقة والوسائل اللازمة لذلك، فلا يشير الى الانبياء عندما ينطرق الى هذه الناحية، بل يركز على أرسطو وغيره من الفلاسفة بوصفهم المنارة التي تؤمن الوصول الى المعرفة الانسانية الصحيحة. ويذهب ابن باجة ابعد من ذلك بامتناعه عن افراد موقع متميز للنبي محمد عليه الصلاة والسلام او وضعه في درجة تعلق سائر الانبياء كما يقدم النص الديني الرسول مقارنة بآثاره السابقين، وهو بذلك يخالف النظرة الإسلامية السائدة حول موقع الرسول، مما عزز النظرة المعادية لابن باجة من قبل الفقهاء ورفع درجة الاتهامات له بالكفر والإلحاد.

ان عرق الإشكال الذي طرحه ابن باجة في الكتابات الفلسفية التي ارتبطت به، تجعل من واجبنا تكافرين لتاريخ الفلسفة ألا نتغافل عن الأحداث المادية والفكرية التي جعلتنا نختلف عن أسلافنا وجعلتهم غرباء عنا. والحدس أن الأساسيان اللذان حصرا مشكلة ابن باجة في تاريخ الفلسفة هما:

أولا: لقد بادت المدينة التي كان ابن باجة يفكر داخلها وانتتهت، فأفول الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس قطع الصلة بين فلسفتها والتربة التي نبتت فيها وهذا وضع أسوأ من وجود المدينة غير الفاضلة. وكذلك افتتاح أوروبا في العالم: بدءا من العالم الجديد، ثم سقوط الخلافة الإسلامية واستعمار اراضيها، ومن بعد موجة الاستعمار دول قارية مختلفة من إمارات ومملكات إلى جمهوريات هجينة في غالبها، لا هي بالقديمة ولا بالجديدة.

ثانيا: ورت "الغرب" فلسفة "الشرق" بالمعنى الواسع لكلمة فلسفة، وطوعها في نمط تفكير حضارة متجددة قوية وذات عبادة العلماء، كما يستشهد ببعض الأحاديث الحديثين أصبح العالم القديم والفكر المرتبط به يبدو غريبا...

عن الحوار التمدن

لا توجد سوى مشكلة فلسفية واحدة، هي السعادة

علي حسين

”

لم يخطر بباله انه سيموت مسموماً على يد طبيب مقرب منه ، ظل اصحابه يحذرونه من التجوال وحيداً في الاسواق خوفاً من أن تنتهي حياته على يد قاتل متحمس ، ولم يكن أحد منهم يتوقع ان الطبيب الاندلسي الشهير أبو العلاء بن زهر يتفق مع احد العاملين في منزل " ابن باجه " ليدس السم في طعامه بعد ان اختلف معه في بعض الامور الطبية والمنطقية ، ويبدو انه كان على علم بما يخطط له ابن زهر . فكتب فيه بيتاً من الشعر :

“

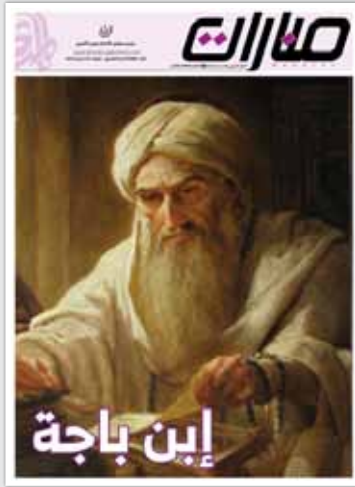


الامراء ليطلع على المكتبات التي كانت تضم مئات المجلدات ، ويبدو ان صلة عائلته بالبلاط اتاحت له حضور جلسات العلم ، فكان شغوفا بالاستماع الى دروس الشعراء والفيلسوف ابن جبرول ، ويذاوم على حضور مناظرات الطبيب والموسيقي " ابي الفضل عداي " ، ولم يدرس ابن باجه العلوم الدينية والادب فقط ، بل تفرغ لدراسة العلوم الفلسفية والطب والكيمياء والفلك والرياضيات ، كذلك درس الموسيقى والموشحات ويصفه ابن خلدون بـ " صاحب التلاخين المعروفة " . في الخامسة عشر من عمره قرأ ارسطو ، وقد وجد ابن باجه ان ارسطو يواجه باسئلته الفلسفية مجتمعا تسيطر عليه الخرافة والحكايات ، فقرر ان يتفرغ لدراسة اعمال الفيلسوف اليوناني . ورغم علاقة اسرته بالسلطة ، إلا ان حياة ابن باجه كانت حافلة بالمحن ، حدثنا هو بذلك ، وكثيرا ما تمنى الموت ليجد فيه الراحة الاخيرة ، والى جانب موقف بعض رجال الدين والفقه منه ، كان يعيش في وحدة عقلية : " ولم يجد انيسا يشاطره آراءه ، وما خلاص الينا من كتبه يدل دلالة قوية على انه لم يكن يأنس الى عصره ولا الى بيئته " - دي بور تاريخ الفلسفة في الاسلام ترجمة

احسن الناس نظاما واحبهم الى الله . كتب ابن طفيل وكان ابرز تلامذة ابن باجه وهو يشرح تطور الفلسفة في بلاد الاندلس : " ثم خلف من بعدهم خلف آخر احقق منهم نظرا وأقرب إلى الحقيقة . ولم يكن فيهم أثقب ذهنًا ولا أصح نظراً ولا اصدق رؤية من رؤية ابي بكر الصائغ (ابن باجه) " - حي بن يقظان تحقيق احمد امين - . تبدو حياة ابو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ الملقب بابن باجه في ظاهرها حياة مترفة ، ولد في مدينة سرقسطة التي تقع شمال شرق اسبانيا عام 1061 ميلادية وكان الابن الثالث لعائلة ثرية تمتهن الصياغة ولذلك لقب بابن الصائغ ، ويذكر ابن خلكان في كتابه " وفيات الاعيان " ان لقب " ابن باجه " جاء من عمل عائلته بصياغة الفضة ، حيث كلمة " باجه " بالاسبانية تعني " الفضة " - ابن خلكان وفيات الاعيان تحقيق احسان عباس - . وقد احتلت اسرته مكانة مرموقة في المجتمع الاندلسي ، لم تكن بعيدة عن بلاط " سرقسطة " . كان الاب يطمح أن يصبح ولده اديبا ، وجد في مكتبة والده الكثير من كتب الفلسفة والشعر والعلوم ، فاهتم بقراءة كتب الطب والفلك والهندسة ، دخل قصور

الموجودات ، ومن شأن العقل ان يعرف بنفسه ، لا بتأثير روحاني يفد عليه من الخارج . ابن باجه المغربي بارسطو ظل يؤكد ان الانسان في خطر ، ولا بد تغيير نمط الحياة والرأي ليتبنى الناس الحقيقة ويسعون نحو حياة افضل . ونجده عندما يبحث عن تعريف للانسان يتوصل الى ان ما يميز الانسان هو عقله . فالمعرفة العقلية هي وحدها التي تقود الانسان الى اكتساب السعادة ، وهي وحدها التي توصلنا الى معرفة الله . فهو يرى ان العقل اهم جزء في جسم الانسان ، وان المعرفة الصحيحة انما تتم عن طريق العقل الذي يعيننا وحده على الظفر بالرخاء وبناء الخلق . في وسع الانسان ان يدرك بعقله الموجودات كلها من ادائها الى اعلاها . كان ارسطو قد كتب في " الاخلاق " ان الانسان الذي يحيى ويعمل بعقله ، ويعتني بتثقيف عقله ، احسن الناس نظاما ، ويبدو ان هذه الكلمات دفعت ابن باجه ان يؤلف كتابه " تدبير المتوحد " - تحقيق معن زيادة وهناك نسخة اخرى بتحقيق ماجد فكري ضمن كتاب " رسائل ابن باجه الإلهية " - ، والذي حاول فيه ان يرسم نظام لـ " الانسان الذي يحيى ويعمل بعقله ، وسيكون هذا الانسان

ياملك الموت وابن زهر جاورتها الحد والنهاية ولم يكن ابن زهر العدو الوحيد لابن باجه ، فقد شاركه كثيرون غيره في ملاحقة الفيلسوف بسبب آراءه الجريئة في مخالفة ابو حامد الغزالي واصرارها على ان سبيل المعرفة هو النظر العقلي فقط ، ونراه يقول ان الطريق الصوفي الذي اتبعه الغزالي يجعله فيلسوف من الدرجة الثانية ، لا يمكن ان يصل الى الحقيقة كما يدعي ، ويسخر في " رسالة الوداع " من كتاب الغزالي " المنقذ من الضلال " الذي يصفه بانها مليء بالالوهام الباطلة . ويذكر ابن ابي اصيبعة ان ابن باجه تعرض الى اتهامات عديدة من اعدائه وانهم حاولوا اغتياله في مناسبات عديدة - عيون الانباء في طبقات اطباء تحقيق عامر النجار - قبل وفاته باسابيع اشار الى احد تلامذته ان يحتفظ باخر كتبه " رسالة الوداع " - تحقيق ماجد فكري ضمن كتاب رسائل ابن باجه الإلهية - ، وكأنه يريد أن يقدم وصيته للعالم ، حيث احتوت رسالة الوداع على معظم آرائه الفلسفية ولا سيما دعوته لاعلاء شأن العقل ، فالمعرفة الحقيقية يمكن تحصيلها من خلال العقل ، ومن خلال العقل يمكن ان ندرك جميع



manarat

www.almadasupplements.com

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير

عززييرع

مكي

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق

منارات

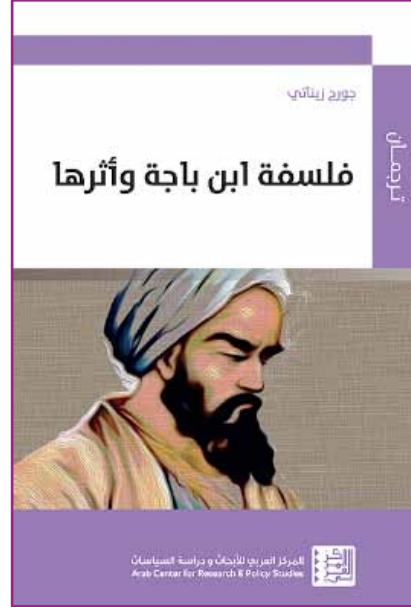
طبعت بمطابع مؤسسة للإعلام
والثقافة والفنون

اوصاف المثل الاعلى للسعيد . ويبدى اهتماما بـ
الفيلسوف المعتزل ، المتواجد ذو استقلال تام ،
لكنه ليس فردا انانيا لا يبحث إلا عن مصلحته ، بل
هو يهدف الى مصلحة ذات قيمة اخلاقية وروحية
عالية . انه يوجه جميع معارفه من اجل بلوغ ذروة
الكمال الانساني ، وهذا الكمال يكمن في اثنى شيء
عند الانسان وهو قوته الفكرية ، ويسمى ابن باجة
في " تدبير المتوحد " الناس الذين يمتلكون مثل
هذه الصفات " النوابت " وهم " الذين يقعون على
رأي صادق لم يكن في تلك المدينة " - تدبير المتوحد
تحقيق معنى زيادة - ويؤكد على أن " النوابت "
يجب أن يعيشوا وفق ما يقتضيه العقل ليتمكن لهم
الوصول إلى السعادة الروحية التي يراها أسمى
مظاهر الحياة الدنيا . وخلافا لكثير من الفلاسفة ،
يرى ابن باجة أن الفلسفة هي لجميع الناس ، لذا
اعتبر أن الفلسفة أو التدبير شأن خاص بالإنسان ،
لأن الإنسان وحده يتميز عن سائر الكائنات الحية
بالفكر ، والإنسان في رأيه يسعى بشكل دائم لتحقيق
السعادة ، ومن هنا يرى أن الفلسفة تحمل غاية عملية
هي تحقيق سعادة الإنسان ، وهذه السعادة تتحقق
عن طريق وصول الإنسان إلى أعلى مراحل التعقل
التي يجسدها العقل الفعال . لقد ربط ابن باجة بشكل
وثيق سعادة الإنسان بالعقل وبحرية الاختيار .

يريد ابن باجة ان يُظهر كيف يمكن مثل هذا "
النابت " ان يبلغ السعادة القصوى عبر نفي روعي
ضروري للترقي بفضل معرفة نقيه خالية الشوائب .
هكذا يطرح ابن باجة موضوع فلسفية مهمة ، هي
موضوع " الاعترا ب " وغربة المفكرين في اوطانهم
بسبب آرائهم . رفض ابن باجة فكرة الغزالي من ان
السعادة تكمن في اللذة ، بل اصر على انها تكمن في
العلم ، والمتعة ليست هدف العلم ، واتهم الغزالي
باحلال ملكات غيبية محل الملكة العقلانية . واذ يجابه
المتوحد مشكلة الحياة في المدن الناقصة او الفاسدة
التي يتعذر عليه فيها بلوغ غاياته العقلية ، يجد نفسه
مضطرا الى الهجرة الى احدى المدن الفاضلة ، فاذا
خلا عصره منها ، لم يكن لديه بديل عن اعتزال الناس
وترك مخالطتهم إلا في الامور الضرورية . والتدبير
يهدف الى ان يحقق الانسان كماله ، ومهما تعددت
معاني التدبير فان غايته اهم انواعه ، هو تدبير
الإنسان لنفسه ، والذي به يكون تدبير المنزل وتدبير
المدينة ، فلا جدوى من الحديث عن تدبير المدينة ان لم
يسبق ذلك تدبير الانسان لنفسه ، ويرفض ابن باجة
ان يكون سبيل التدبير عن طريق المواقظ والوصايا
، لأن الاساس الذي يقوم عليه تدبير الانسان لنفسه
إنما يقوم على العلم والاخلاق . ويرى ابن باجة ان
المتوحد هو الذي يكون فعله فعلا انسانيا كاملا ، اي
يصدر عن فكر ورؤية .

والهدف من التدبير هدف مزدوج : فمن جهة يهدف
الى تدبير العقل ، عقل الانسان للبلوغ به الى الوجه
الاكمل ، اي الارتفاع الى مستوى من الحياة العقلية
، الى درجة الفيلسوف الذي ينظر الى كل شيء
بعين العقل ، فيرى العقل في كل شيء ، وتلك هي
السعادة ، ومن جهة ثالثة يهدف التدبير الى ايجاد
المدينة الكاملة ، ذلك ان التدبير يكون داخل المدينة
لا خارجها ، فالإنسان مدني بالطبع والمتوحد انسان
قبل كل شيء وهو يريد ان يستكمل افضل معاني
وجوده ليس العقلية فقط بل والمدنية والاجتماعية
ايضا ، ن وفيما انه يعيش في مدينة ناقصة وهو
فيه مثل " المتوحد " فعليه ان يسعى الى ان يجد
نماذج مثله حتى تتحول المدينة الى مدينة كاملة اذ
ان وجودهم سبب حدوث المدينة الكاملة " - تدبير
المتوحد - .

أدرك ابن باجة حقيقة عالم السياسة المخيف ،
ووجد ان البلدان لكي تستقيم امورها عليها ان
تعزز العقل وتحارب الخرافة ، وقد أيقن أن رجلا
كثيرين سيموتون بسبب افكارهم ، لأن كل التاريخ
هو تاريخ مواجهة ، لكن الخلاص يكمن في العلم
والمحبة لبناء " الدولة السعيدة " .



اعرف نفسك " نجد ابن باجة يؤكد على ان :
العلم بالنفس يكسب للناظر قوة على اخذ مقدمات
لا يكمل العلم الطبيعي دونها ، واما الحكم المدنية
فلا " - ابن باجة كتاب النفس تحقيق محمد صغير
حسن المعصوي - .

تزرخ الأعمال التي وصلتنا من ابن باجة على قلتها
، حيث فقدت العشرات من مؤلفات بسبب ما تعرض
له من مضايقة واتهام بالالحداد ، ويقال ان الكثير
من كتبه احترقت ، بحيوية فائقة تخلقها الافكار
الجريئة التي طرحها والموضوعات التي تناولها
والتي تبرز على اهتمامه بالفلسفة العقلية في في
محيط كان يؤمن بالنصوف والروحانيات ، وتثبت
ان اهمية ابن باجة في تاريخ الفكر الفلسفي العربي
لم تكن مقصورة على كتبه في الكون والنفس
والحيوان وشرحه لارسطو والفارابي ، بل ان
اهميته تتمثل في ذلك الكتاب الفلسفي الدهش
والذي اشاد به ابن رشد وقرر ان يضع شروحا له
وهو كتاب " تدبير المتوحد " ، حيث رأى فيه ابن
رشد عملا فلسفيا جديدا لا شبيه له عند افلاطون
في " الجمهورية " ولا عند الفارابي في " آراء اهل
الديانة الفاضلة " ، وتبرز اهمية " تدبير المتوحد "
باعتياره اول كتاب فلسفي في المغرب والاندلس
يقدم نظرية سياسية متكاملة ، وفيه يشدد ابن باجة
على كلمة تدبير والتي تشير من خلالها الى مفهوم
ترتيب الافعال الانسانية حسب الغاية المستهدفة .
فالتدبير هو الذي يسمح لنا ان نقول عن " الله "
انه مدير العالم ، ولان نتحدث عن ضرورة تدبير
المدن ، وان القانون يدير افعال البشر . في " تدبير
المتوحد " يطرح ابن باجة نظريته السياسية ،
فيفترض وجود مدينة فاضلة او كيان سياسي
هو المثل الاعلى للدول ، ويصف ابن باجة المدينة
الفاضلة بانها لا تحتاج الى اطباء ولا قضاة ، فذلك
لان اهلها متسامحون ، يحبون بعضهم بعضا فلا
يقع الخلاف بينهم ، وهم يمارسون الرياضة ولا
يتناولون الاطعمة الضارة ، ولهذا لا يمرضون ولا
يحتاجون الى الطب ، وآراء اهل المدينة الكاملة
كلها صادقة وفعالهم فاضلة ولا يسمح بهذه المدينة
بالكذب والخداع ، وفي هذه المدينة يمارس كل
مواطن العمل الذي يجيده ، والانسان يهدف الى
الخير ، ذلك لأن المواطن الفاضل جزء لا يتجزأ من
المدينة الفاضلة .

يذهب ابن باجة مذهبا اقرب الى افلاطون في القول
بالمدينة الفاضلة مقابل المدن غير الكاملة ، وهو يؤكد
ان مدينة افلاطون الفاضلة هي المدينة التي يستطيع
فيها الفيلسوف ان يحقق غايته ، لكنه لم يطالب بان
يكون الحاكم فيلسوفا ن بل اكتفى بان اشار الى

عبد الهادي ابو ريده - اصف الى ذلك كان اول
المشتغلين بالفلسفة في بلاد الاندلس ، كما ان دفاعه
عن الانسان وحرية الارادة والاختيار ، واعتبار
العقل قيمة مطلقة ، ودعوته الى الفصل بين العلم
والدين في كتابه " تدبير المتوحد " ، حيث اكد ان
مجال البحث العلمي يقوم على التجربة والبرهان
ومجال الدين يقوم على الايمان والغيبيات ، وخلافا
لكثير من الفلاسفة كان ابن باجة يرى ان الفلسفة
لجميع الناس ، وان غايتها تحقيق سعادة الانسان
، وهذه السعادة تتحقق عندما يصل الانسان الى
اعلى مراحل العقلانية ، سعى الى الربط بين سعادة
الإنسان والعقل وحرية الإرادة .

يصف لنا ابن باجة معالم مسيرته الثقافية في
رسالة وجهها الى صديقه " يوسف بن حسداي " ،
حيث يخبرنا انه بدأ حياته بقراءة الشعر ونظمه
وبالموسيقى التي شغف بها صغيرا ، ثم انتقل الى
علم الفلك فقرأ مؤلفات ابن الهيثم ، وتفرغ لدراسة
كتاب " المجسطي " لبطليموس . في اشبيلية ،
توطدت علاقته بالفلسفة حيث وجد ضالته في كتب
ارسطو التي تبحث في شؤون العقل والنفس وفي
تأملات افلاطون عن العدالة ، وفي مدينة الفارابي
الفاضلة . واذ تصفحنا كتابات " ابن باجة " سيلوح
لنا ارسطو الحقيقي المهتم بالعلوم ، صاحب كتاب
الحيوان والنفس والطبيعة ، وسنلتقي بالفارابي
المعلم الثاني ، الامر الذي سيجعل ابن رشد يعلن
ان ابن باجة قدم فلسفة جديدة لم تكن موجودة
عند الذين سبقوه من فلاسفة العرب . في سرقسطة
اصبح وزيرا في بلاط الحاكم " ابن تفلويت " ،
وكان يرسله في مهام دبلوماسية ، إلا ان الحظ لم
يحالف ابن باجة طويلا ، اذ اُلقي به في السجن
بسبب وشاية بعض علماء الدين ، وعندما خرج كان
" ابن تفلويت " قد توفي وتعبرت احوال سرقسطة
حتى استولى عليها الاسبان عام ١١١٨ ، فقرر
الرحيل الى الجنوب حيث سكن في مدينة " المرية "
بعدها سافر الى شاطبة وهناك تعرض الى محنة
جديدة فقد انهم من جديد بالزندقة ، التي به في
السجن ، حتى جاء يوسف بن تاشفين حاكما فاطلق
سراحه ، ونال عنده التقدير وعينه وزيرا وتوطدت
علاقته بالوزير ابو الحسن بن الامام وكان من اشد
المعجبين بفكر ابن باجة وكان له الفضل في حفظ
ما تبقى من تراث ابن باجة ، في هذه الفترة قام
برحلات الى اشبيلية وغرناطة وهران . بعدها
قرر التفرغ لمشاريعه الفلسفية فطلب اعفاءه من
المنصب ، وانشغل باكمال كتابه " تدبير المتوحد "
، يقرر السفر الى مصر ، لكن الرحلة لم تتم حيث
انتهت حياته في مدينة فاس في الثامن من ايار عام
١١٣٩ ، بعد ان قدم له السم في الطعام .

كان ارسطو بالنسبة للفلسفة العربية منهجا للتعليم
، وقد اطلق عليه الفلاسفة العرب لقب " المعلم الاول "
وكان ابن باجة المهتم بالفلسفة اليونانية يعزو
لارسطو قدرته على تنوير العقول ، ولهذا نجده يهتم
بكتب ارسطو عن النفس والطبيعة ، ويقول عبد
الرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية ان ابن باجة
اهتم بفلسفة الانسان ، لان ما تناوله يدور معظمه
عن الانسان ، فصحيح ان الانسان يشارك الحيوان
في بعض الافعال التي يقوم بها والتي لا اختيار له
فيها كالاحاساس . لكن الانسان يمتاز عن الحيوان
وعن الجماد والنبات بالقوة الفكرية . وهو لا يكون
انسانا إلا بها ، وهو له افعال لا توجد لغيره من
الموجودات : " والافعال الانسانية الخاصة به هي
ما يكون باختياره . فكل ما يفعله الانسان باختيار
فهو فعل انساني . وكل فعل انساني فهو فعل اختيار
واعني بالاختيار : الإرادة الكاملة عن روية " - ابن
باجة تدبير المتوحد تحقيق معنى زيادة - .

ويذهب ابن باجة الى ضرورة دراسة علم النفس
، فليس بمقدورنا ان نفهم مبادئ العلوم ما لم
نفهم ما هي النفس . فمن لا يعرف نفسه لا يعرف
العالم المحيط به ، ومثلما اطلق سقراط شعار "

ابن باجة وفلسفة الهجرة الى العقل

فريد العليبي

د

واجهت السلطة الإيمانية التقليدية الفلاسفة العرب بالكثير، مستحثة السلطة السياسية والجمهور للتضييق عليهم واستئصال شأفتهم، ومن هؤلاء من قضى اغتيالاً، ومنهم من عرف السجون والمنافي، أما كتبهم فقد كان مصيرها الحرق والمصادرة في الغالب، فضع جانب مهم منها، وحتى تلك التي وصلتنا فقد ظلت لقرون طويلة نسيا منسيا. والمفارقة أن هؤلاء الفلاسفة كثيراً ما كان يجري تقريبهم لطبهم، واستبعادهم ومطاردتهم لفلسفتهم، فكانوا موضع حظوة حيناً، وتجريم أحياناً أخرى. وقد كتبنا في الأوان عن ملامح من العقلانية العربية المغدورة في كتابات هؤلاء محيلين إلى الفيلسوف الأندلسي أبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة، ونواصل هنا الحديث عن هذا الفيلسوف الذي دعا إلى الهجرة إلى العقل، في مواجهة سلطة المتصوفة والمتكلمين المتمزتين.

د

من بين جميع الكتب والرسائل التي وصلتنا من ابن باجة فإن كتابه تدبير المتوحد يتمتع بأهمية خاصة، فقد ضمنه أبرز أفكاره حول العقل والتعقل والمعقولات وتدبير المنزل والمدينة ومعنى السعادة الخ... والغاية التي طلبها من وراء تأليف هذا الكتاب هي الإبانة عن الكيفية التي من خلالها يمكن بلوغ المقصد الأسمى أي السعادة، فكتاب تدبير المتوحد يرشد إلى الطريق المناسبة لتحقيق ذلك الهدف، فأبي فردينا يختار سبيل العقل يمكنه الوصول إلى الغاية القصوى، بل إن أهل مدينة ما إذا عملوا عقولهم أمكنهم في مجموعهم إدراك كمالهم وسعادتهم. ويقدر سمو الهدف بقدر صعوبة المسالك المؤدية إليه، لذلك فإن ابن باجة لا يكتفي بالحديث عن الغاية المطلوبة، وإنما يصب اهتمامه أيضاً على السبل الموصلة إليها. ومنذ البداية يهتم المؤلف بتحليل لفظ التدبير، مبيناً أنه يدل على مجموعة من الأعمال التي تروم تحقيق مقصد محدد، فالتدبير لا يدل على عمل مفرد وإنما على تشابك جملة من الأعمال وقوعها وفق نسق محدد، يؤدي في نهاية المطاف إلى بلوغ الهدف المرسوم، فالتدبير دال على وضع استراتيجيا يتم التحرك وفقها، وهو ما يعني أن كل عمل منفرد ومعزول لا يمكن أن يدخل ضمن هذا التحديد، فالتدبير يعني شبكة كاملة من الأفعال التي يجري ترتيبها بحسب أهميتها، ويعود ابن باجة إلى لسان العرب للوقوف على معنى لفظ التدبير، مبيناً أن أشهر دلالة له تتمثل في "ترتيب أفعال نحو غاية مقصودة، ولذلك لا يطلقونها على من فعل فعلاً واحداً يقصد به غاية ما، فإن من اعتقد في ذلك الفعل أنه واحد لم يطلق عليه التدبير، وأما من اعتقد فيه أنه كثير، وأخذ من



كثيراً، فهو يروم تحقيق إصلاح اجتماعي وسياسي، معتمداً في ذلك العقل، مستشرفاً آفاقاً ممكنة لتأسيس المدينة الكاملة الفاضلة. وعلى هذا النحو، فإن السند الذي ترتكز عليه المدينة الفاضلة، وتستمد منه شرعية وجودها هو العقل، فأهل المدينة الفاضلة يبلغون السعادة بواسطة محددة هي النظر العقلي الدقيق، مما يعني تعقل مختلف الأمور وتوضيحها. وهذا التعقل هو الذي يجعل المرء عالماً بما يجوز وما لا يجوز، وبالتالي ينسئ له تجنب الوقوع في الأخطاء، وهذا من شأنه أن يؤلف أساساً يقوم عليه النظام السياسي الفاضل والطباع التي تتسم بالصفاء، والأخلاق التي تتصف بالرفعة، بما يعنيه ذلك من تحقيق الارتباط بين السياسة والأخلاق. ومهمة المتوحد ليست هيئة، فبفعل انتشار الفساد في المدن فإنه يكون غريباً في بلده بعيداً عن أهله وأصدقائه، إنه متقف معزول ومنعزل في علاقته بالساكنين، فالمدينة الجاهلة الناقصة غارقة في أزماتها، غير مدركة للهلاك المترتب بها، معرضة عن الفيلسوف ومتعلقة بأهداب المتصوفة والمتكلمين الجهلة، الأحياء منهم والأموات، إنها ضحية تقدس جلادها، متكررة لمن يطلب خلاصها، وتذكرنا الصورة التي يرسمها ابن باجة للمتوحد في غربته بصورة أخرى تطلع بالملمح ذاتها في الإشارات الإلهية للتوحيد، ف"الغريب من هو في غربته غريب... هو من إن رأيت لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه، الغريب من إن حضر كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً، وأغرب الغريب من صار غريباً في وطنه"، فمن حوله لا يدرك بيسر مراميه وأهدافه، فالتناسق واقعون تحت وطأة العادة تحركهم الرغبات والأهواء، في حين لا يخضع المتوحد لسلطة غير سلطة عقله، لذلك فإنه يسمو بفكره عن المدينة التي يعيش فيها، ويهاجر عقلياً إلى مدينة أخرى منصوراً، تكون بديلاً عنها، وفي قطيعة كلية مع شهورها ومساقها، فالعقل حصن يأوي الفيلسوف إليه، والمدينة الكاملة طوبى جميلة تراوده، إنها مدينة منشودة، إذا ما قيس لها التأسيس ستكون خالية من الكذب والزيف والشراً

وكل ما يفقد الإنسان إنسانيته، فتلك هي السمات الدالة عليها، إذ "بيّن أن المدينة الفاضلة الكاملة قد أعطي فيها كل إنسان أفضل ما هو معد نحوه، وأن آراءها كلها صادقة، وأنه لا رأي كاذب فيها، وأن أعمالها هي الفاضلة بالاطلاق وحدها، وأن كل عمل غيره فإن كان فاضلاً فبالإضافة إلى فساد موجود" ابن باجة، تدبير المتوحد، ص ٤١. وعند حصول ذلك التأسيس تكون عزلة الفيلسوف قد انتفتحت لكي تخلي المجال أمام انصهاره بين الفضلاء والعقلاء أمثاله. ويبدو واضحاً هنا أن ابن باجة يوجه نقداً لاذعاً للحياة الاجتماعية السياسية السائدة في عصره، أي إننا أمام معالجة نقدية لمنظ مجتمع نتج عنه ظهور إنسان تخلو سلوكياته الأخلاقية من الفضيلة، وتفترق أفكاره إلى الحكمة، تعطل العقل لديه فأضحى عدواً لذاته قبل أن يكون عدواً للآخرين.

والمسألة السياسية في رأي ابن باجة هي في جوهرها مسألة اجتماعية أخلاقية، ولحلها يجب الاعتناء بالأسرة والفرد، لذلك يركز اهتمامه على المنزل (الأسرة)، فمثلما هناك مدينة كاملة وأخرى ناقصة هناك منزل كامل وأخر ناقص ومريض، ف"المنزل ما عدا المنزل الفاضل مرضي وكلها منحرفة" ابن باجة، تدبير المتوحد، ص ٤٠. والدور الذي يعطيه للعقل يكشف عن الفعالية التي تمارسها الأفكار بالنسبة إليه في تنظيم شؤون الناس، فالفلسفة بما هي فعل عقلائي يمكن أن تقود إلى السعادة والكمال، وبالتالي بناء المدينة الكاملة وضمان وحدتها، أما الإيمانية الدينية سواء اتخذت شكل الكلام أو التصوف فإنها لا تؤدي لغیر بقاء المدن على فسادها، لافتقارها إلى البرهنة العقلية وارتكازها على الخطابة والجدل، فجمال حركتها على مستوى النظر إعادة إنتاج النصوص القدسية دون إضافة تذكر، أما على مستوى العمل فإنها تبذر الفرقة والتباغض بين الناس، مما يؤدي إلى انقسام المدينة على نفسها في شكل ملل ومذاهب وطوائف متناحرة. والقيمة الكبرى التي يمنحها ابن باجة للفعل الإنساني المستند إلى العقل والتعقل، تجعله يسمو بهذا الفعل إلى مستوى الفعل الإلهي، وهذا هو الفعل الذي يختص به المتوحد، إذ التفلسف كما قال سقراط هو التشبه بالآلهة قدر المستطاع، فالنفس العاقلة هي التي يجب الانقياد إليها أما النفس الحيوانية فإن الانقياد إليها يعني الوقوع تحت وطأة الشهوات، وذلك يؤدي إلى الضلال، فالإنسان الذي يترك العقل جانباً، ويتبع شهواته يعد الحيوان أفضل منه، إذ الحيوان يطبع طبيعته الخاصة، بينما يتنكر ذلك الإنسان إلى طبيعته الخصوصية من حيث هو كائن عاقل، ويتبع الطبيعة الحيوانية، فلا يكون العقل لديه سبيلاً إلى الخير والفضيلة وإنما طريقاً إلى الشر والرذيلة.

وإذا كان ذلك هو حال عامة الناس في المدن الفاسدة بمن فيهم أصحاب السلطة العقلية الإيمانية، فإن المتوحد/الفيلسوف يمثل استثناء، فهو يستعمل عقله لكي يصل إلى الكمال والفضيلة، لذلك فإن المدن الناقصة تحتاج إلى المتوحد الذي به يتم تجديدها، أي إن المدينة الناقصة تجد في المتوحد وسيلة لدرء مساوئها، وبالتالي إعادة بنائها على أسس جديدة، فهو يتحمل مسؤولية خطيرة تتمثل في الحث على تحطيم المدينة الناقصة، وإقامة المدينة الكاملة محلها، فالمتوحد أو كما يسميه ابن باجة "النابت" هو شخص عاقل فاضل في مدينة جاهلة فاسدة، ومن هنا بالذات جاء تفرده. ومن ثمة فإن مشروع المتوحد مشروع تجديدي في جوهره، يجد في العقل سلاحاً يشهره ضد الشر والفساد في الحقلين السياسي والأخلاقي. فالمتوحد رافض لما هو سائد متمرد على المعايير السياسية والاجتماعية والأخلاقية والمؤسسات التي ترتكز عليها، ووجوده داخل المدينة الناقصة إنما يمثل جين المدينة الكاملة التي يجب أن تتأسس، وأفعاله وأفكاره بواكير لما سوف يأتي من نظم اجتماعية وسياسية وأخلاقية بديل.